تفريغ المجلس (٠٢٤)

"تتمة الباب السادس في ذكر الرومان وحكومتهم بالجزائر: ٣ - تأسيس دولة الرومان. / ٤ - ديانة الرومان. / ٥ - الحياة الرومانية. / ٦ - الرومان في افريقية. / ٧ - استيلاء الرومان على الجزائر.[1]".

[٣ - تأسيس دولة الرومان]

تاريخ ابتداء الدولة الرومانية غير واضح، قال ماليت والمؤرخون يعتمدون على ما كتبه تيت ليف (TITE-LIVE) الذي كان على أغسطس قيصر متصلا بآخر حياة الجمهورية[2].

---

[1] إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لهن وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فكنا انتهينا في قراءة هذا الكتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" في جزئه الأول عند الباب السادس، وهو في ذكر الرومان وحكومتهم في الجزائر، ذكرنا تمهيدا في بيان أن الرومان أمة من اللطين ينتسبون إلى عاصمة دولتهم، واسمها "روما"، وأصل هذه المدينة تم تكوينها من أول ملك من ملوكهم "روملوس" وذلك نحو سنة ٧٥٠ ق.م، تقريبا، وأصلهم أنهم من إيطاليا، ويتكونون من أجناس كالغاليا والأتروس والإغريق واللطين، وغيرهم.

وذكر أن هذه الأمة فيها شدة، وهي أمة متوحشة، أهل جبال وغير ذلك، وانتهينا إلى عنوان "تأسيس دولة الرومان".

[2] دولة الرومان كما سيأتينا ابتدأت مملكة ولم يدم الأمر طويلا فثار الناس على ملكها السابع فصارت جمهورية ثم انتهى أمرها إلى إمبراطورية، ثم ذهبت أدراج الرياح، يعني تواجدها في هذه البلدة، لأنهم خلفهم بعد ذلك الوندار كما سيأتي في الباب السابع.

هذا المؤرخ ينسب تأسيس الدولة الرومانية إلى روملوس باني رومة، وينسب روملوس-تبعا لأساطير الوثنيين- إلى الآلهة.

ويذكر في نشأته ونشأة أخيه ريموس خرافات، أضربنا عنها صفحا لبعدها عن الخيال المستحسن، وإن لم يتفق مع الحقيقة[1].

وعد ماليت لرومة سبعة ملوك، خامسهم هو الذي أدخل إلى رومة شعار ملوك الاتروسك[2]: الجبة الحمراء والتاج والكرسي وسيف المملكة[3]، وسادسهم هو أول من تنبه إلى طبقة الصعاليك[4]، فأدخل قسما منها في الجندية، وقد كانوا كمية مهملة، وطبقة الأشراف هي التي تقوم بجميع شؤون المملكة[5]. وسابعهم ثارت عليه الأمة، فالتجأ إلى المعبد، ولكنه قتل به.

وفي ابن خلدون[6] تصريح بأن رومة أسسها روملوس، ولكن الدولة مؤسسة من قبله بكثير، وعد ملوكا تقدموا روملوس، ويظهر من كلامه أن الدولة أسست أثناء الألف الثاني (ق. م)، وذكر ابن كريون مؤرخ بني اسرائيل: أنه جاء بعد روملوس خمسة ملوك. "أغتصب خامسهم رجلا في زوجه، فقتلت نفسها، وقتله زوجها في الهيكل[7]".

فاتفق ماليت وابن خلدون على أن آخر ملوك رومة قتل بالمعبد.

[1] فيه حكايات إنما هي مخترعة فلا يحتاج إلى أن تذكر.

[2] يعني طقوسا معينة وشعارات.

[3] يعني الملك يكون له أشياء جبة حمراء، وتاج على رأسه، وله كرسي خاص، وسيف.

[4] يقصد به الفقير الذي ليس له شيء

[5] لأن المشتهر فيهم أنهم على طبقات طبقة الأغنياء ومن دونهم.

[6] في كتابه المقدمة، ثم في كتابه الذي ذكر فيه البشرية من أولها إلى زمنه، **(العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)**، وهو مطبوع في سبع مجلدات.

[7] المعبد

وبه انتهى الدور الملوكي، وذلك سنة ٥٠٩ (ق.م)، وصار نظام رومة جمهوريا من ذلك الحين[١].

قال ابن خلدون عن ابن كريون: "وأجمع أهل رومة على أن لا يولوا عليهم ملكا، وقدموا شيوخا ثلاثمائة وعشرين، يدبرون ملكهم، فاستقام أمرهم كما يجب، إلى أن تغلب قيصر"، وشكل الجمهورية يتألف من قنصلين وشيوخ.

١ – القنصل: ومعناه منفذ الأحكام، ينتخب لمدة عام، وللقنصلين رئاسة الجند ومجلسي الشيوخ والشعب. ولهما النظر في القوانين وعرضها على المجلسين، وهما اللذان يقيمان الاحتفالات الدينية. فهما رئيسان في الدين والسياسة[٢].

٢ – الشيوخ:. يختارهم القنصل من رؤساء الأسر الشريفة، ومن اختير لهذا المنصب يبقى به مدة حياته[٣]. وبيد الشيوخ السلطة على الشؤون الداخلية والسياسة الخارجية.

ومن نظام الجمهورية أنه في أيام الشدة يسمي القنصلان متصرفا يمنحانه النفوذ المطلق، فينفذ أحكامه من غير مراجعة مجلس الشيوخ، ويسمي لمدة ستة أشهر فقط[٤].

---

[١] يعني تأسيسها كان نحو ٧٠٥ق.م، ودامت نحو قرنين إلى ٥٠٩ق.م لأننا قلنا لمّا نعدّ قبل الميلاد كلما نقص العدد كان أقرب مما هو بعيد.

[٢] هذا الصنف إليه الحكم.

[٣] مر معنا كما يذكرون في دولة الشيوخ.

[٤] عندهم هذه القوانين الحكمية. وهذه كلها قوانين من وضع البشر، وحكومات نظامها نظام بشري وضعي، على خلاف ما عليه الحكومات الإسلامية، والدولة الإسلامية، فثمة أحكام هي أحكام شرعية بينها الله ﷻ وأوضحها في كتابه، وكذا النبي ﷺ في سنته، وكذا في سيرته العملية، وأيضا زاد إيضاحا الخلفاء من بعد النبي ﷺ لأن سنتهم تابعة لسنته، وقد قال ﷺ (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين) لا يعني ذلك أنهم استدركوا على النبي ﷺ لا، لأن الدين كمل بوفاة النبي ﷺ ولما أنزل الله ﷻ {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً}المائدة٣.

لكن في الدين كما قال العلماء أصول عامة وقواعد عامة، ونصوص مطلقة، ويحدث للناس من الحوادث بقدر ما يحدث لهم، فوقع في زمن النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعلي ڤ حوادث كثيرة، كان لهؤلاء الخلفاء أحكام واجتهادات هي من معين ومنبع ومصدر نصوص الكتاب والسنة، فهم أولى من يفهم ويحسن تنزيل الأحكام في هذه المسائل، وبقي

وقد اتسعت ممتلكات رومة على عهد الجمهورية، فبلغت ولايتها سبع عشر: عشر ولايات بأروبا، وخمس بآسيا، واثنين بأفريقية.

لم تكن تقصد الجمهورية الرومانية إلى التداخل في عوائد مستعمراتها وديانتها، وإنما تقصد منها الانقياد لدولتها وأداء الضرائب لبيت مالها[1].

الأمر كما كان كذلك، ولهذا قال النبي ﷺ (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء) فكانت سنتهم من سنته ﷺ، ففي الحكم والدولة أشياء المرجع فيها إلى الشرع، ويحكم فيها الشرع، والحكم فيها معين.
وفيه أمور من دنيا الناس الشرع أطلق فيها الحكم إلى العرف، والعادة، أو إلى تغليب المصلحة، وإلى الاجتهاد المصلحي ونحو ذلك، وهذا بخلاف ما عليه الأنظمة الأخرى. النظم الموجودة الآن، إما نظام ديكتاتوري انفرادي، يقابله نظام جمعوي، والنظم الجمعوية كما يسمونها الدولة المدنية، تكون ليبرالية، أو غير ذلك من أنواع الحكم، ولهذا لهم تكون من وضعهم، والإنسان لاشك ولا ريب مهما اجتهد في وضع نُظم تحكم بين الناس لا يمكن أن يكون هذا النظام يراعي جميع المصالح، ويدوم لجميع الأزمنة، ويضبط العلاقة ضبط جيدا بخلاف ما نجده في الشرع، فشريعة الله ﷻ أنزلها الله، والله ﷻ هو أعلم بعباده، فيعلم ما يصلح لهم، وما لا يصلح، ويعلم ما هي الأحكام التي تدوم دوام السماوات والأرض، والأحكام التي يراعى فيها العرب أو المناطق والبلاد، أو غير ذلك، وهذا الذي نجده في الشرع.
ولهذا لا يوجد أفضل من الحكومة الإسلامية، ومن الدولة الإسلامية، ومن النظام الإسلامي الشرعي، مرتكز على نصوص الكتاب والسنة، وعلى سنة الخلفاء الراشدين، وعلى الاجتهادات الشرعية التي تنبني على أصول الكتاب والسنة، فالمخرج لجميع الناس هو في هذا لا في غيره، وأما في غيره فتمرد على الله ﷻ عياذا بالله.

[1] يغلب عليها الغرض المالي، أن تكون هذه الدول تابعة لها من غير أن تتدخل لا في العادات ولا في التقاليد ولا العوائد ولا الديانة، المهم أنها تخضع للضرائب وتعطي الإتاوات وترد المال لبيت مال روما في البلد الأصلي. هذا كان قبل مجيء النصرانية، الأمر بعد ذلك تغير.

ولقد كان نظام الجبايات[1] مضرا بالمستعمرات[2]، فقد كانت الجمهورية تسند استخلاص الضرائب إلى أعيان اغنياء، يؤدون لها ماتريده، وهم يستخلصون من الأمة ما شاؤوا من غير مرحمة ولا شفقة، حتى أن المعدم يقرضونه بالفائض ليأدي لهم ما يطلبونه منه، وبهذه الصفة انتزعت أملاك وافتقرت أسر[3].

---

[1] الضرائب. وإن كان هناك فرق بين الجبايات في الحقيقة والضرائب، الجباية يكون لها مسوغ شرعي، فهو شيء يعطيه الفرد أو الجماعة مقابل أشياء، بخلاف الضرائب التي تلزم الناس، وغالبا لا يكون لها مبرر، وإن كان لها مبرر فليس شرعيا وليس بالنسبة التي تنبغي أن تكون.

والناس يختلفون، ليس من العقل في شيء أن توازن وتفرض على زيد من الناس مثل ما تفرضه على الآخر، ولهذا نجد في الشريعة الإسلامية في نظام الجزية كما قال ﷻ {حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}التوبة٢٩، هذا في حق اليهود والنصارى، وألحقوا بهم المجوس كما جاء في الأثر {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}التوبة٢٩، فيعطون الجزية وهم صاغرون، أي أهل الكتاب إذا كانوا في بلاد المسلمين، يحمونهم ويدافعون عنهم ولهم حقوق معينة، لكن يدفعون الجزية.

وهذه الجزية يراعى فيها صاحب العمل ممن لا يعمل، الكبير والشاب، الغني والفقير، صاحب الأولاد ومن ليس له، الذي يعمل والذي لا يعمل، الجاني من غير الجاني، القوي والضعيف، يراعون وقد تسقط، ولا تلزم المرأة، ولا الأطفال الصغار، وإذا كان فقيرا قد تسقط عنه، ففيه مراعاة لجميع الأحوال، ولهذا الشريعة أنسب للناس لو كانوا يعلمون.

[2] وهكذا دائما نظام الجبايات يضر، والله ﷻ قد شرع لنا ما يعوض هذا، وإنما الناس عطلوا حكم الله ﷻ وعطلوا شرائع الله وتركوها، ولجؤوا إلى ما لا يغني عنهم، ووجدوا عند ذلك الحاجة إلى جمع المال، من أين يأتون به؟ فقلدوا في ذلك الغرب، أما الحكم الشرعي، وحكم الدولة الإسلامية، والموارد في الشريعة الإسلامية كثيرة جدا.

فنظام الزكاة يغني ويكفي، والزكاة مفروضة في الأنعام وفي الأموال وفي الحبوب، وكذلك عندنا الركاز ما يوجد من دفين الجاهلية، هذا أيضا مما يؤدى منه الخمس، وقضايا كثيرة، عندنا نظام الأوقاف فيه كثير من النظم، ولكن الناس لا يعلمونها ولا تصل إليهم، لأنه شاع نظام فصل الدين عن الدولة، وفصل الدولة عن الدين، فيرون أن الدين عبارة عن طقوس معينة، ولا يوجد فيه ما يحل فيه مشاكل الناس، والأمر على خلاف هذا، بل في الشريعة ما يصلح ويُصلح الناس في كل زمان ومكان.

[3] تفرض دولتهم ضرائب قوية على الأغنياء، والغني له أن يفعل في الفقير ما يشاء، ويقرض الفقيرَ بالزيادة حتى يؤدي ما يطلبه، فانتزعت أملاك كثير من الناس، وافتقرت الأسر، تأتي إلى فقير صاحب أرض، فتقول: أقرضك ألفا وترد ألفين فيعطي الألف ولا يرد الألفين، فيقول أزيدك فتصير ثلاثة آلاف، فيقبل ولكن لا يرد ثلاثة آلاف، فيقول أربعة آلاف، فلما يصل للأربعة آلاف يقول له: أنت لست قادرا سآخذ منك الأرض، فانتزعت الأملاك بهذه الطريقة،

فشا الجور والارتشاء في جميع ولاة الرومان[1]، وأصبحت غايتهم الوحيدة هي الحصول على الثروة بأية وسيلة[2]، ولم تبق الوضائف مسندة إلى مستحقيها[3]، وحدثت برومة نفسها أهوال من تنافس العظماء، وصارت القوانين ضعيفة أمام ذلك كله[4].

ساءت من ذلك حال الأمة، ولم تجد في الجمهورية ما يحسن حالها ويخفف من ويلاتها، فاجتوتها، وتواطأ على اجتوائها أهل رومة وأهالي الولايات التابعة لها.

وبينما الأمة في انتظار الفرج لهذه الازمة إذ ظهر يوليوس قيصر، وحاول تغيير شكل الحكومة بجعلها امبراطورية، فقام في وجه الجمهوريون، وانتصر عليهم بإيطاليا ثم أفريقية ثم الأندلس. ولما عاد من

افتقرت أسر، وهذا غير موجود في الشريعة الإسلامية، الربا حرام قال الله ﷻ {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا}البقرة٢٧٥، وقال ﷻ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }البقرة٢٧٨، وقال ﷻ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }آل عمران١٣٠، وقال ﷻ {وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ}الروم٣٩.

[1] لأن الأمر صار طبقية، وصار قضية إتاوات تفرض بقوة وبغلاء وزيادة، ما هو السبيل للنجاة منها؟ الرشوة والجور والظلم، فمن له سلطة يفرض على من ليس له به علاقة، ويتسامح مع من له علاقة، ويتجاوز على من يقدم الرشوة، ويشدد مع من لا يقدمها، وهكذا.

[2] الدولة لا بد لها من مؤرخين الذين هم أهل إحاطة بالتاريخ، وعلماء في التاريخ، فإن قيام الدولة يحتاج إلى هذا، وعندنا منهم ولكن مهمشون غير معروفين، إذا مات يعلن له في التلفاز كما يقول المثل (كان مشتاق تمرة وكي مات علقولو عرجون)، عندنا أبو القاسم سعد الله يعرفه بعضكم، هذا من المؤرخين الكبار، له تاريخ الجزائر الكامل، وله تاريخ الجزائر الثقافي في تسع مجلدات، كتب فيها عن علماء الجزائر، إذا قرأت تحار، لما كان فيه هذا البلد، مؤرخ كبير وقلّ من يسمع به، يحاضر في كل مكان، وله مكتب خاص في مكتبة كاليفورنيا، إذا ذهب هناك لطلب مخطوطات أو تحقيقها، يدخل إليه ويحقق، لكن ليس له تلك المرتبة عند أهله.

فالمؤرخون لقيام البلد والدولة لهم أهمية كبيرة، يفيدونك بمثل هذا، لهم دراسة في التاريخ السابق فيفيدون، وهم أهل مشورة، يرجع إليهم.

[3] هذا لزوم منطقي عقلي، يصير العمل لا يعطى إلا لمن هو له أهل.

[4] لا قيمة للقوانين مع المال والنفوذ، والجاه والسلطة والقوة والغش والرشوة والغرور والاغترار بالمال والنساء، لا قيمة للنظم والقوانين.

الأندلس سنة (٤٥) ق. م سمي برومة متصرفا مستبدا مدة حياته فحارب الجمهوريين بالسياسة كما كان حاربهم بالسيف، وأضعف نفوذ مجلس الشيوخ، فصار مجلس استشارة فقط، وكان عددهم سبعين في نقل ابن خلدون عن هروشيوش أو (٣٢٠) في نقله عن ابن كريون أو (٣٠٠) على ما ذكر ماليت، فأضاف إليهم، يوليوس قيصر شيوخا من أهل الولايات التابعة لرومة. فبلغ عددهم (٩٠٠).

فرحت الأمة بيوليوس قيصر لحسن إدارته وكفاءة ولاته، ولكن الجمهوريين كانوا ناقمين عليه، وتمكنوا من قتله في مجلس الشيوخ نفسه سنة (٤٤) ق. م.

وكان الجمهوريون يظنون أن في ذهاب قيصر رجوع نفوذهم، ولكن الأمة كرهت سياستهم، وسئمت من الفتن التي كانت على عهدهم، واستبشرت بقيصر ووجدت فيه بغيتها، فزادها قتله نفورا من الجمهوريين[1]، وكان من قواد قيصر رجل يدعى أنطونيوس، وله شهرة ومحبة في قلوب العامة، فقام على

[1] التاريخ يعيد نفسه يهذب هذا ويأتي ذاك.

الجمهوريين، وهيج العامة ضدهم[1]، وكان لقيصر ابن أخ (أو ابن أخت) متبنيه يدعى اكتافيوس[2]، وكان بأثينا يتعاطى المعارف، وهو حدث شديد الحماس داهيه في السياسة، فتظاهر باللين للجمهوريين، حتى ظنوا أنه يكون لهم عضدا على أنطونيوس، فأخذوا ينصرونه في خطبهم، ويطعنون في أنطونيوس وبعد أن توصل إلى رئاسة جند كبير طلب إلى الشيوخ أن يولوه قنصلا فامتنعوا.

---

[1] يعني إذا استطعت أن تهيج العامة على طرف، فهذه ورقة رابحة، ولهذا تجدون في الدول الآن خاصة الغربية الورقة الرابحة عندهم هم الطلبة الجامعيون، لأنهم الطبقة المثقفة، خاصة الدراسات العليا هي الطبقة المؤثرة في تحويل أحوال الناس وظروفهم وسياساتهم، فكثير منهم إذا أراد التأليب يثير القلاقل في الطلبة، ودخول التأثير وتعطل الجامعات أمر ليس بالسهل.

وهيج العامة ضدهم، العامة أمرها صعب، نحوم فنرجع إلى العلم، لو ينتشر العلم لا يكون للعامة أثر، ولكن إذا غاب العلم يكون للعامة أثر وأثر كبير، وكانت الدولة الإسلامية قديما كانت في عز، إذا قرأت في تاريخ الأمة تمر بحوادث تقرأها تريد العين أن تبكي وتدمع، مجلس من مجالس الحديث يحضره أربعة آلاف، أربعة آلاف عمامة كلهم يسمعون للحديث، أو عشرة آلاف أو ألف أو ألفان، قد يقول قائل: وكيف يسمعون؟ عندهم المستملي يقول الشيخ الكلام يحدث ثم يتوقف، فحيث ما انتهى الكلام يوجد مستمل أول، فيكرر ما قال الشيخ، للمستملي الثاني، والمستملي الثاني يكرر ما قال الشيخ للثالث، والرابع .. وربما ينتهي إلى السابع أو أكثر، وهذا من الأدلة التي تجيز الإجازة عن بعد.

الآن فيه إجازات تسمى الإجازة عن بعد، يعني أن يعقد مجلس علم في بلد معين، في الحجاز أو الأردن أو الكويت، أو في البلد عندنا شرقا وغربا، فتدخل وتسجل بمعلوماتك على أنك مستمع، وتسمع التحديث، المستملي الجهاز، وتسمع الكتاب من أوله إلى آخره، وتجاز في ذلك، فهذه قضية المستملي تصلح دليلا، وهناك أدلة أخرى كثيرة تصلح دليلا لمثل هذا، والطريقة هذه تستطيع أن تسمع بها كتبا، وقد سمعت بها كتبا كثيرة، كالأربعين، وموطأ مالك، والبخاري وغيره، تجعل وقتا وتستمع، لكن أحيانا قد يكون الوقت ضيقا، يعني ساعات معينة، خمس ساعات أو أربع لإتمام الكتاب.

فهذا كان في الدول الإسلامية، كان العلم فيها زاهرا، وأمة عظيمة العلم فيها منتشر.

(**وهيج العامة ضدهم**) ولهذا يقال للناس لا تتكلم الكلام الذي يهيج العامة، لأن العوام لا يحسنون التصرف، ليس كأهل العلم والفضل والرزانة، ومن يميز المصالح والمفاسد ويقارن بينها، ليس الأمر سواء.

[2] سيتكرر معنا كثير مما ذكر سابقا، لأنه لما ذكرنا الفينيقيين والبربر في عهد الفينيقيين والرومان، قلنا نذكر تدخل الرومان على الشمال الإفريقي، وإثارة البلابل ونحوه فهنا فيه نوع تكرار.

كان أنطونيوس ينتصر لقيصر كي يحل محله، فلما ظهر أكتافيوس حسده، وكادت الحرب تقع بينهما، ولكنهما اصطلحا وضما إليهما ثالثا هو لبدوس، وكان واليا على الغاليا، اقتسم هؤلاء المملكة بينهم لمدة ثلاث سنوات، ووافقت الأمة على ذلك بالانتخاب العام، وذلك سنة (٤٢) ق. م.

ثم إن أنطونيوس ذهب إلى مصر التي كانت له، واستهوته كليوباطر فشغل بها عن الملك، وصار ينوي احداث مملكة شرقية يورثها أبناء عشيقته، وبذلك زالت ثقة الرومان منه، ولبدوس جعل رئيسا دينيا، فبقي أكتافيوس يدير مملكة رومة وحده، لا ينافسه إلا أنطونيوس صريع تلك الغانية وفاقد ثقة الأمة[١].

نجح اكتافيوس في سياسته، وأراد انطونيوس الظهور عليه بالحرب، فحاربه ولكنه لم ينجح فقتل نفسه سنة (٣٠) ق. م وفعلت كليوباطر فعله[٢] فاستراح اكتافيوس من عدوه، ثم قضى على الجمهورية التي عاشت خمسة قرون، وقال ابن خلدون: عاشت سبعة قرون.

في سنة ٢٧ ق. م لفظت الجمهورية النفس الأخير، وسمي أكتافيوس إمبراطورا، وتلقب أغسطس، واستمرت الدولة الرومانية من عهده امبراطورية، ومعنى امبراطور صاحب الامر.

والجزائر لم يستول عليها الرومان استيلاء عسكريا إلا على عهد الإمبراطورية.

---

[١] هذا ممن له ميل وتأثر بالنساء عياذا بالله.

[٢] كلّ منهما قتل نفسه وانتحر.

[٤ - ديانة الرومان]

للرومان آلهة عظمى عامة، وآلهة صغرى خاصة بالأسر أو المنازل، فكانوا يعبدون القوى الطبيعية والنار المقدسة والموتى من أسلافهم[١]، وعبادة الموتى هي العبادة الخاصة بالأسر، ويعتبرونهم آلهة خير ما نشطوا لعبادتهم، وقربوا لهم القرابين، وإن هم قصروا في ذلك انقلبوا آلهة شر، ويمثلون أرواحهم في الديدان، فيطعمونها الفول الأسود[٢].

ومن آلهتهم العظمى جوبتير (كوكب المشتري)[٣]، وهو إله المطر، ومنها جونون، وهي آلهة النور والزواج، ومنها منيرف، وهو إله الفطانة، ولهذه الثلاثة برومة معبد مشترك بينها، ويعتقدونها حامية رومة.

وهناك آلهة للحرب والبحر والمعادن والفلاحة والتجارة والاخلاق وغير ذلك، ويبلغ عدد آلهة الرومان مائة وستين إلها.

أولئك الآلهة يستغيثون بها ويستعينونها في جميع شؤونهم، وهم أكثر الأمم اعتناء بالآلهة، فقدم كان ببعض معابدهم ثلاثون ألف تمثال، حتى قال أحدهم: "وطننا مملوء آلهة حتى أن وجود إله أيسر علينا من وجود رجل"[٤].

---

[١] يعني يغلب عليهم المجوسية، أو البوذية.

[٢] يعني السذاجة في العقول.

[٣] هناك منتوج عصير اسمه (جو بيتر) ما معناه؟ الإنسان ينظر في هذه الألقاب، ليس كل من يأتي من الغرب نرفعه، اسم هذا العصير (جو بيتر) في الغرب هم يرونه آله. وهو كوكب المشتري يجعلونه إلها، قد يقول القائل: ليس لي خبر ولا أعرف، لا إشكال غير العلامة، لأن الأصل في مثل هذا المستوى مؤسسة شركة إنتاج عندها مصلحة ومجلس يدير جميع الشؤون حتى الشؤون الأدبية التي يدخل فيها الأمور الاجتماعية والدين، يكون فيهم واحد يميز، فيقول هذه التسمية لا تليق ولا ينبغي أن تكون، وهذا في كل المؤسسات التي يكون لها منصب وقيمة تنظر من جميع الجوانب، فيأتي أحدهم وينتج عصيرا أو مشروبات غازية، ويسمي بتسميات لا تشرع، كتسمية "سيدي فلان"، "سيدي عبد الله" و"سيدي سنان" ..الخ وهي أضرحة تعظم وتعبد من دون الله.

[٤] مرة سافرنا ونحن أربعة إلى منطقة في سيارة، وقلت لهم: احسبوا عدد الأضرحة، الاثنان اللذان على اليسار يحسبان وكذلك اللذان على اليمين، اختلط علينا العدد لكثرتهم.

ولم يكن للديانة الرومانية حقائق وأصول للعبادة[1]، وانما كانت ذات أعمال مثل تقريب القرابين، وغايتهم في العبادة الاستعانة على النصر أو الاستعانة لتصريف المصائب.

ولم يكن لآلهتهم أولا تماثيل، ثم تأثروا بالإغريق، فصاروا يتخذون لها تماثيل في صور بشرية.

وعلى كثرة آلهتهم أضافوا إليها آلهة أخرى مما وجدوه لدى الأمم التي استولوا عليها، فأخذا من آلهة المصريين وأهل آسيا الصغرى، ولم يدعوا إلها من آلهة الإغريق إلا عبدوه.

وكان علماء الرومان يرون أن الأرباب المختلفة باختلاف الأمم ليست إلا مظاهر لأصل رباني عام، لذلك لم يأنفوا من عبادة آلهة الأمم المغلوبة لهم، ولم يلزموها بعبادة آلهتهم[2]، وقد اشتهر الرومان بالتسامح الديني والتساهل في شأن الآلهة[3].

[1] مجرد كذب وخزعبلات وأمور مختلقة.

[2] يعني كلها ترجع لمعنى الرب.

[3] هذا مجمل ديانتهم.

[٥ - الحياة الرومانية]

كانت الحياة الرومانية - منذ عرف الرومان إلى القرن الأول للميلاد- حياة بساطة لا رفاهية فيها، حتى إن من عظمائهم من كان يحرث بيده، وأكثر أثاث عظمائهم بسيط وأوانيهم من خشب.

تمكنت روح البساطة منهم فلم تتغير حالتهم حتى بعد استيلائهم على الأوطان الكثيرة الغنية بنتائجها الراقية في حضارتها، فبقوا فلاحين أو جنديين أو سياسيين لا تجارا ولا فنيين، وبقيت الصنائع والفنون بيد غيرهم من الأحرار والمماليك.

كان غرض الرومان من الحياة توسيع الثروة حبا في المال نفسه.

ومن كلمات كاطون أحد عظمائهم: "إن من مات وأُلفي بدفاتر حاصلاته أنه ربح أكثر مما ورث فذلك ملهَم من الآلهة "[١].

ولكثرة اشغالهم وشدة عنايتهم بكسب الثروة صاروا أقل الأمم حبا في الملاهي وأبعدها عن التظاهر بالعظمة.

ملابسهم كانت خشنة: يلبس الرجل السراويل وقميصا سابغا بأكمام وبغيرها، ونساؤهم يكثرون من الحلي وضروب الزينة كصبغ الشعر وطلاء الوجه، ويخرجن سافرات، ويلبس كل من الرجل والمرأة خفافا غلاظا.

وللخاصة لباس يميزهم: الشيوخ لهم قمصان ذات حواش حمراء، والقضاة لهم خفاف حمر، والأحرار لهم حلة من الملف الأبيض، وهي رداء غير مربع، يبلغ طوله نحو تسعة أذرع.

ولم يزل الرومان على بساطتهم في اللباس حتى إن الإمبراطور قليغولة غار من لباس بطليموس ملك موريطانيا البربري وبهت منه العامة، وأفضت الغيرة إلى الانتقام بالسجن ثم القتل، فمات بطليموس شهيد لبسته![٢]

---

[١] الشخص إذا مات ويرون أن ما ربحه أكثر مما ورث، فهذا قد أعانته ووفقته الآلهة -هذا كلامه-.

[٢] هذا مر معنا لما قال الذوق البربري أي في هذا البلد أحسن من ذوق الرومان.

وهل هذه العبارة (**مات بطليموس شهيد لبسته**) سليمة أو لا؟ من الناحية الشرعية الشهيد معروف، قالوا في حديث أبي موسى الأشعري في الصحيحين (**يا رسول الله الرجل يقاتل حمية، وعصبية، وشجاعة، أي ذلك في سبيل الله؟**) قال (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فذلك في سبيل الله) [أخرجه البخاري (7485) واللفظ له، ومسلم(1904)]، ذلك هو الشهيد، ولفظ الشهيد الآن لفظ شرعي، يطلق على من مات في سبيل الله ﷻ هذا الأصل، هل يقال هذا؟ من الناحية اللغوية لأن لفظ شهيد من حيث اللغة يطلق على الذي مات تضحية لشيء، فهذا المقصود من الناحية اللغوية، أما المعنى الشرعي، فله مدلوله الشرعي.

وفي الشرع هل يصح أن تقول في قتيل المعركة شهيد؟ يعني إذا خرج الجند المسلمون للقتال في سبيل الله لرفع راية لا إله إلا الله وكلمة الله، ومات منهم من مات، هل نشهد لهم بأنهم شهداء؟ أما المعاملة فنعاملهم معاملة الشهيد، يعني قتيل المعركة الذي خرج للقتال في سبيل الله، إذا قتل لا يغسّل، ولا يكفّن، ويدفن في ثيابه، ولا يصلى عليه، وإن صلوا عليه جاز، لكن صلاة الجنازة غير لازمة، فإذن: لا يغسّل، ولا يكفّن، ولا يصلى عليه، ويدفن في ثيابه ودمائه هذا الشهيد في سبيل الله، كما قال ﷺ (يأتي يوم القيامة الجرح يثعب دما، اللون لون الدم، والريح ريح المسك) [صحيح الترمذي 1656] الشهيد له فضائل كثيرة.

المعاملة معاملة الشهيد، لكن هل نقول "فلان شهيد" محل خلاف بين العلماء، البخاري في الصحيح بوّب بابا سماه (**باب هل يقال فلان شهيد**) وأورد حديث سلمة بن الأكوع في الرجل الذي قاتل مع المسلمين، وأبلى في الله بلاء حسنا، وقاتل قتالا عظيما، فقال الصحابة للنبي ﷺ: ما رأينا اليوم مثل فلان يقاتل مثل مقاتلتكم، فقال ﷺ (**هو في النار**) هذا الكلام وقع عند الصحابة موقعا، يعني هو يقاتل مع المسلمين في سبيل الله، كما جاء في الحديث (**لا يترك شاذة ولا فاذة إلا واتبعها وضربها بسيفه**) فقال أحد الصحابة (**أنا أطلب لكم خبره**) أي أنا أتبعه، فتتبعه قال (**فكانت به جراح ولما أثخنته جراحه وضع زبيبة رمحه بين ثدييه واتكأ عليها حتى خرجت من ظهره**) قال (**فرجعت إلى النبي ﷺ فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله**) هو يشهد ولكن وجد صدق ما قاله ﷺ، فقال (**وما ذاك؟**) قال (**الرجل الذي قلت فيه كذا وكذا فإن الصحابة تعجبوا من هذا فقلت أطلب لكم خبره، فتتبعته ...**) الحديث قال (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة) [أخرجه البخاري(2898)، ومسلم(112)] فاستفيد من الحديث بأنك لا تستطيع القطع بأن تقول: فلان شهيد.

لكن جاء في أحاديث أخرى ذكر الشهادة بالشهيد للآخرين، ومن ثمة وقع الخلاف بين أهل العلم، فبعضهم نفى أن يقال: فلان شهيد إطلاقا، وبعضهم قال: بل يقال، وبعضهم استثنى وفصل، وفيها أقوال، والعلم عند الله.

ويقال من حيث اللغة شهيد لبسته، شهيد وطنه، شهيد ثروته، هذا المقصود، ولفظ الشهيد لفظ شرعي لكن هنا قاله من حيث المعنى اللغوي وقيده.

ومساكنهم كانت خشبية مطينة، ثم ترقوا قليلا فبنوها بالحجارة، ولم تكن لها نوافذ لعدم معرفتهم لصناعة الزجاج، وعلى خلوها من النوافذ كانت ضيقة متقاربة، والأنهج[1] غير واسعة ولا منظمة، والنظافة قليلة، والضوء معدوم ليلا.

وكانت لهم بناءات عمومية، وهي أرفع من بناء مساكنهم.

لم يزل الرومان كذلك على بساطة حياتهم حتى فتحوا البلدان، واستولوا على الأمم، وأقاموا بين ظهرانيهم، وطالت معاشرتهم لهم، اذ ذاك تأثر الغالب بالمغلوب وجاراه في حياة النعيم والرفاهية، وفي الحقيقة إن المغلوب لا يؤثر في الغالب، وإنما أثرت تلك الأمم في الرومان لأنهم مغلوبون لها في العلم والحضارة[2].

أخذوا عن اليونان وأهل المشرق الملابس الرقيقة، وزينوا البيوت بالتماثيل والرخام والحجارة النفيسة، وفرشوها بالزرابي، وأكثر ما تأثروا في حياتهم بالإغريق، ومع ذلك لم يأخذوا عنهم فنهم في البناء، ولم تزل آثار البناءات الرومانية دالة على فقد الذوق اللطيف للرومان، وهي تمتاز بأنها عظيمة ذات أقواس، بسيطة ليس فيها تحسين.

---

[1] جمع نهج وهو الطريق الذي يفصل بين السكنات.

[2] الرومان غلبوا بالقوة، وكانوا أهل توحش وبساطة، لكن المغلوبين كانوا أصحاب علم وحضارة، ومنهم الفينيقيون، وكذلك البربر مما استفادوا من الفينيقيين والقرطاجنيين والبونيقيين، فالرومان تأثروا بهم، والأصل أن المغلوب لا يؤثر في الغالب، لكن إذا كان المغلوب صاحب علم وحضارة فإنه يؤثر، هذا المقصود.

[٦ - الرومان في إفريقية]

انتهت الحرب البونيقية الثالثة[١] بالقضاء على مملكة قرطاجنة وتخريب تلك العاصمة وحلول الرومان محل القرطاجنيين، فاستولوا استيلاء فعليا على التراب الأصلي لقرطاجنة، وأطلقوا عليه اسم "مملكة الرومان بافريقية" وجعلوا على هذه المملكة أو الولاية واليا مقره عوتيقية.

وهذه الولاية عبارة عما بين وادي توسكا (ناحية طبرقة) شمالا، ومدينة تينة (جنوب صفاقس) جنوبا، وخطها الغربي من جهة نوميديا غير مستقيم فإنه يمر من توسكا حتى يقترب من قفصة ثم ينحني حيث ينتهي في تينة قرب البحر، فهي عبارة عن جزء غير كبير من عمالة تونس.

ولم تكن تطمع الجمهورية الرومانية إذ ذاك في توسيع هذه الولاية وبسط نفوذها الفعلي على الشمال الأفريقي، لعلمها بشجاعة البربر وحماسهم في الدفاع عن وطنهم، وجهلها بدواخل هذا الوطن، فاكتفت باعتراف ملوك البربر بالسيادة الاسمية ريثما تلين قناتهم، وتضعف شوكتهم.

وكانت، الجمهورية لما فتحت قرطاجنة بعثت عشرة من الأعيان لينظروا مع سبيون في مصير قرطاجنة، فاتفق رأيهم على هدم ما أبقاه الحريق منها فتركوها قاعا صفصفا كأن لم تغن بالأمس، ولعنوا باسم آلهتهم موضعها، ولكنهم بعد قليل اضطروا لتجديدها.

وذلك أن إيطاليا ضاقت باهلها بسبب استحواذ طبقة الأغنياء على أراضيها وجلب العبيد لخدمة تلك الأراضي، ويقال: ان عدد هؤلاء العبيد بلغ ثلاثة ملايين. وأصبح عدد عديد من الإيطاليين لا أراضي لهم يستغلونها ولا عمل يشتغلون به، حتى أنه كان برومة أكثر من اربعمائة ألف لا عمل لهم غير الجولان بالأزقة.

وكان كايوس انتخب للمحاماة عن الشعب سنة (١٢٣) فاقترح - لرفع هذه الأزمة- إرسال جاليات من أولئك الفقراء من المال والعمل إلى الولايات الرومانية[٢].

---

[١] سبقت معنا الحروب وهي على نوعين حروب قرطاجينية، وحروب بونيقية، وذكرنا الحرب الأولى والثانية والثالثة.

[٢] يعني خارج إيطاليا.

وكان روبريوس من محامي الشعب أيضا فاقترح سنة (١٢٠) ق. م، تجديد قرطاجنة وإرسال طائفة من فقراء الشعب لتعميرها.

قبل الشيوخ اقتراحه، وعين كايوس لتنفيذه، فجاء إلى قرطناجنة بستة آلاف إيطالي، ومكث في تجديدها ثلاثة أشهر، وحينما تم تجديدها أطلق عليها اسم "جونونيا" تبركا باسم جونون وجعلت هي حامية قرطاجنة.

وكما أن هدمهم لمدينة قرطاجنة لم يذهب بها وحييت من جديد كذلك تغييرهم لاسمها فإن تسميتهم لم تزاحم الاسم الفينيقي، وأبى الله الا أن يبقي الاسم الأول هو المعروف المشتهر[١].

نهضت قرطاجنة من جديد وقصدها الرومان بالهجرة، وانضموا إلى بقية العساكر الرومانية التي استوطنت أفريقية، وبما انهم نسخوا القرطاجنيين وحلوا محلهم استفادوا من علاقات القرطاجنيين مع البربر، فانبثوا في مدن الولاية الأفريقية ونوميديا، وانتصبوا فيها للتجارة والصناعة، فتمكنوا بذلك في أفريقية[٢].

---

[١] لا يزال إلى الآن.

[٢] يعني هنا كانت بداية دخول الرومان إلى إفريقية، كان عن طريق تونس، ثم بدأوا يدخلون.

[٧ - استيلاء الرومان على الجزائر]

بعد واقعة طبسوس سنة ٤٦ (ق. م) استعمر الرومان شرقي نوميديا وأطلقوا عليها اسم أفريقية الجديدة أو نوميديا الحديثة، ومنحت نوميديا الوسطى (قرطة والمدن التابعة لها) لستيوس. وأطلق عليها اسم "مستعمرة ستيوس".

ولعل الرومان أرادوا أن يجعلوا حكم ستيوس لنوميديا الوسطى دور انتقال يسهل عليه اضافتها إلى مستعمراتهم من بعد، ولكن عرابيون قتل ستيوس فحرم الرومان من هذه المستعمرة. وأصبحت من بعد ذهاب المملكة البربرية ولاية رومانية لها أنظمتها وإدارتها، متمتعة بالاستقلال حتى أن من المؤرخين من يعبر عنها بالدولة ومنهم من يعبر عنها بالجمهورية.

أما نوميديا الغربية (قسم سطيف) فقد بقيت بيد عرابيون البطل البربري، والظاهر أن رومة أضافتها إلى مستعمراتها بعد قتله.

وأما موريطانيا الشرقية فقد بقيت بيد أمراء بربريين آخرهم بوكوس الثالث المتوفي سنة ٣٣ (ق. م). وبعد وفاته ألحقها الرومان بمستعمراتهم، وجعلت تحت نفوذ اكتافيوس مباشرة، وأراد أن يغرس بها الحضارة اللطينية، ولكنه خشي شدة شكيمة البربر، فلم يعجل بتنفيذ برنامجه، وتظاهر للموريطانيين باللطف والمجاملة حتى وجد رجلا من بني جنسهم ولكنه مخلص لرومة، فولاه على موريطانيا سنة ١٧ (ق. م).

هذا الرجل البربري الروماني هو يوبا الثاني الذي مهد وطنه لسادته الرومان وشجعهم على امتلاكه بعد ما حاولوا ذلك منذ أزمان، واشرأبت أعناقهم إليه فلم يقووا على تحقيق آمالهم فيه.

وهكذا لولا الخيانة الجنسية من بعض الرؤساء وضعف الغيرة القومية من الأمراء ما حكم أجنبي وطنيا ولا ساد غريب أهليا[١].

---

[١] هذه كلمة جميلة للمبارك الميلي رَحِمَهُ اللهُ تُكتب.

في سنة (٤٢ م) بحد قتل بطليموس ألحقت موريطانية برومة نهائيا. وبذلك تم للرومان الاستيلاء على الوطن الجزائري الذي شرعوا في تحقيقه منذ سنة ٤٦ ق. م فكانت مدة سير استيلائهم ثمانية وثمانين سنة.

ومع بطء هذا السير فانه لم يكن ثابت القدم عاما على الوطن الجزائري فإن الرومان لم يتقدموا لهذا العهد إلى الصحراء، وخط حدودهم يقترب من البحر كلما تقدم ناحية الغرب، وتوجد داخل الحد أماكن غير خاضعة لرومة منها جمهورية المدن الخمس: قرطة، ميلوم، روسقاد، شولو، قويقلوم ولم تدخل في فوضى الاستعمار الروماني إلا منذ انحل اتحادها أواخر القرن الثالث. ومنها القبائل الخمس (القبائل) الذين كان الرومان يسمون وطنهم "جبل الحديد" (**MONS FERRATUS**).

ولم يتمكن الرومان من إخضاعهم الا سنة (٢٩٧). وأكثر البربر الساكنين بالجبال لم يخضعوا لرومة. ومن خضع منهم لا يضيع فرصة الثورة مهما سنحت.

وخلاصة الكلام أن الرومان لم يستولوا حقيقيا على كل الوطن الجزائري رغم امتداد أيامهم به، وسترى ما ينير لك الحقيقة[1].

---

[1] نقف عند هذا الحد إن شاء الله تعالى، والله تعالى أعلم.